

الذكرى العاشرة

لزيارة قداسة البابا يوحنا بولس الثاني للمغرب

بامر من صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني أقيم يوم 25 جمادى الأولى 1416هـ الموافق 16 أكتوبر 1995 م، بالرباط حفل بمناسبة تخليد الذكرى العاشرة للزيارة التاريخية التي قام بها البابا يوحنا بولس الثاني للمغرب.

وبهذه المناسبة، وجه صاحب الجلالة رسالة الى المشاركين في هذا الحفل تلاها مستشار جلالتهم السيد محمد علال سيناصر. وفي ما يلي نص الرسالة الملكية السامية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه
سماحة مبعوث قداسة البابا يوحنا بولس الثاني السيد فرانسيس كاردينال أرينزي
أصحاب السماحة والسعادة
حضرات السادة والسيدات،

إنه لمن دواعي الأمل والاستيثار، وبواعث التبصر والاعتبار، أن نحتفل بذكرى
عشر سنوات على زيارة صديقنا قداسة البابا يوحنا بولس الثاني للمملكة المغربية. فلقد
تَشَرَّفْنَا باستقباله في ذلك اليوم المشهود، وقد حل بين ظهرانينا نسج علاقات المحبة،
ودعم أسباب الاتصال والوثام، بين الأمم والشعوب والأديان.

فنعم العمل ونعم الغاية ولايسعنا، بصفتنا أميراً للمؤمنين وأيضاً كرئيس لمنظمة
المؤتمر الاسلامي، إلا أن نبارك في مسعاه الحميد، ونبتهج بعزمه السديد، وحرصه
المتضاعف، ودأبه المتجدد، على لقاء الناس جميعاً، ناصحاً ومذكراً ومرشداً بالدليل
الصائب، والحجة البليغة، والموعظة الحسنة التي توحى بها التعاليم الكتابية المنزلة.

لذلك كنا نتتبع ببالغ الاهتمام أعمال صديقنا قداسة البابا وأقواله منذ أن تولى
مأموريته الخطيرة، ونسعد بتوجيهاته النيرة إلى مسؤولي الكنيسة في المغرب العربي

وغيره، وهو ينيه على أساس تعليمات "فاتكان الثاني"، داعياً إلى ضرورة مصافحة المسلمين، ومعرفة دينهم معرفة عميقة نزيهة، ملؤها التعاطف والتقدير. فالزيارة التي نحيي ذكرها اليوم، مساهمة فعلية في هذا الانجاء، تبرز ما بين الديانتين الإسلامية والمسيحية من تقارب في النظر، وتأزير في القيم، وحب للمثل، كما أنها تعزز قواعد الاحترام المتبادل انطلاقاً مما «أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ»، وعملاً بما وصَّى الله تعالى به «نوحاً» و«إبراهيمَ وموسى وعيسى»، لإقامة شعائر الدين، وتقرير أحكام الكتاب، والحفاظ على الميراث المشترك للديانات السماوية، ذلك الميراث الذي أجمع عليه أئمة الإسلام، وقال به أعلام الفقهاء المجتهدين من الغزالي وابن رشد وابن تيمية وغيرهم، مثل ما اتفق عليه قادة الأديان ومفكروها، وما تبلور فيما بعد في ميثاق المنظمات الدولية الحديثة، وخاصة منظمة الأمم المتحدة، في مبادئ وحقوق قارةٍ مُقررةٍ متساويةٍ.

أصحاب السحاحة والسعادة

أيها السادة والسيدات،

قد لا يحصي العادون نقط الالتقاء بين مسؤولياتنا في عالم اليوم، خصوصاً بالنسبة للشباب الذي هو نواة المستقبل، وأمانة الاستمرار. لكن مجمل هذه النقط تعود أصلاً، من حيث ماهيتها وتوجهاتها، إلى العمل بالقيم الإنسانية الدينية، لأنها تقوي الوازع الروحي، وتجعله عنصراً فاعلاً، حادياً وهادياً إلى حل معضلات العصر التي لا تنتهي وإن تغيرت، ولا تنقضي وإن اختلفت وتتنوع، تاركة وراءها، في كل آن ومكان، ما نطلق عليه عادة اسم صروف الدهر. لكن القيم التي نؤمن بها، تجعلنا لا نُهِنُ ولا نحزن، لأن الله سبحانه وتعالى، الذي لا رادُ لقضائه، ولا معقب لحكمه، يصرف عقول المؤمنين جميعاً، ومنهم المسلمون، إلى الصبر والأناة، في مواجهة مصاعب الحاضر، ومظالمه المتعددة العتيدة، القديم منها والحديث، المترتب عن الحروب والتنازلات الموروثة، أو تلك التي ترتبت عن الحرب الباردة ومخلفاتها. نَعْمُ، إن المؤمنين يواجهون كل ذلك بالعزم والحزم والتفاؤل والتشبث بالقيم العالية التي بها تستقيم الدنيا، ويتحقق التقدم الذي ابتغاه الله تعالى للإنسان، حين استخلفه في الأرض، لإقامة عمرانها،

بالتدبير الحكيم، والعقل السليم، والإيمان الراسخ العميم.

أصحاب السعادة والسعادة

أيها السادة والسيدات،

ليس من قبيل المصادفة أن نحتفل بالذكرى زيارة قداسة البابا، صديقنا يوحنا بولس الثاني، ونحن نترأس منظمة المؤتمر الإسلامي، بالإضافة لرئاستنا لجنة القدس الشريف، كما كان عليه الأمر سنة 1980 عند زيارتنا لحاضرة الفاتيكان. وبالنسبة للمؤمن بالله، المتوكل عليه، المصدق لرسالاته، المستضيء بنور هدايته، ليس ذلك من محض الاتفاق والصدقة، إنه من تقدير الله عز وجل، وعلمه وحكمته. والمناسبة هذه استعثت على القيام بمسؤولياتنا مهما صعبت، وتذليل العقبات كيفما عسرت، ومجابهة الوقائع كيفما تعقدت، أداءاً للأمانة المنوطة بنا، وسعيًا لبلوغ أهدافنا في تحقيق التقارب والتفاهم والتعاون والسلام. فالأهداف من مكونات رسالة الإيمان، بل هي صميمها، وهي جزء لا يتجزأ من الجهاد الذي يخوضه المؤمن لاستئصال العنف من النفس الأمارة بالسوء؛ وبالأهداف نهتدي في العمل على تأصيل منطق الحوار، وترجيح منهاج الأخلاق، ومحاولة إعطاء السلوك والتصرفات صيغة بشرية عليا، ومعاني إنسانية مثلى، لا تكفي بالظاهر والمظهر، ولا تحل من الخارج كألوان غير متألصة، أو زخرفة كاذبة عابثة، بل إنها تتدرج فيما سمته كتبنا: الهدى والنور، والحق والفرقان.

ونشعر، نحن المسلمين، بما يختلج في صدور كل المؤمنين الصادقين من "تساؤلات"، ولكننا ندرك أن الأديان جاءت معدلة لأفعال الإنسان وأعماله، على أن تستنير أعماله بنور الإيمان، فتعوسط بين الإفراط والتفريط، لإدراك الحقيقة الكلية العليا من جهة، ولتوظيف هذا الإدراك من جهة أخرى في صالحه، فيسلك المسالك التي تباعد عن التفرق والتنازع والبغضاء والفتن. ولا ينتظم ذلك إلا بدرء المغاسد أولاً، والأخذ بالمصالح ثانياً، لتحسين حال الإنسان الذي سخرت له الأرض، فكان في صلاحه صلاحها وصلاح العالم وأحواله. لذلك كانت الحقيقة ترتبط بالإدراك الفطري البسيط، والمقاصد بالتكاليف اليومية في العبادات والمعاملات، لما تتوخاه جميعها من تهذيب الإنسان وسعادته وطمأنينته وسلامته مصيره.

وكما قال علماؤنا : للديانة غاية إلهية، ومقاصد إنسانية. ومن ثم كانت عبادة الله سبحانه وتعالى إصلاحاً لحال الإنسان. وكان سر ارتباط الدين بالدنيا في علاقة العاجل بالأجل، وارتباط مصالح الدنيا بمراشد الدين.

أصحاب السعادة والسعادة

أيها السادة والسيدات،

وفيما نحن نستشرف مطالع القرن الواحد والعشرين، ونستطلع إمكاناته، نستبين مجال المفارقة الناشئة، من جهة، عن توفر وسائل الهيمنة على مصير الإنسان وحياته، ومن جهة أخرى، عن انهيار كل الحواجز التي كانت تحد من حرية الإنسان. ومن ذا الذي لا يهنا لإنهاء عصر الشعارات البراقة، والتخطيطات المركزة المنظرة، ومحاولة إخضاع كل مرافق الحياة لمراقبة فئة منيعة وحزب وحيد؟ لقد ابتهجنا لهذه النهاية لأن الله تعالى حذر من الإكراه حين قال عز من قائل: «وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضَ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ» (205/2) وقال: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ» (6/96). ذلك أن الظلم إذابة وآفة للبلاد والعباد، وإقبالاً لآمال العاملين في ثمرات أعمالهم وفوائد مكاسبهم. وإن سجلت قضية الحرية، باندثار حائط برلين، كسبا عظيما ونصرا مؤزرا، فلقد توضحت به المسؤوليات، وتجددت الأفاق واتسعت اتساع العقل والوجدان. وكنا من الأوائل الذين أدركوا، منذ أمد غير يسير، هذه الحقائق والغايات، وذلك عند رجوعنا بصحة والدنا، طيب الله ثراه، من متفانا السحيق، فعملنا، دون تريب أو احتراز، على ترجيح كفة الحرية والمسؤولية، اتباعا لتعاليم ديننا، وثقاليد بلادنا، وانطلاقا مما كسبته الإنسانية بانتهاء الحرب الكونية. كان أملنا وطيداً في حلول عهد جديد يتميز بالنضج والتفتح وتوحيد المقاييس في تطبيق الشرعية الدولية. ولكن خشية أن تصبح حرياتنا ميدانا للاجهار والمضاربة، ومسؤولياتنا ضحية لشتى المغريات، قررنا أن تقوي إرادة أبنائنا وبناتنا، داخل أسرنا الصغيرة والكبيرة، وننعمش عزيمتهم على المحافظة على وسائل الاختيار الحقة.

لقد جعلت منظمة الأمم المتحدة من هذه السنة عام التسامح. ولكن ما نستقرنه من مجريات الأمور، ومن بينها المطامع الجهوية المؤدية إلى إراقة دماء الأبرياء، وقتل «النفس التي حرم الله»، (151/6) يجعلنا نخشى على العالم الرجوع، الظاهر أو

الباطن، إلى الروح القبلية، والنزعة العنصرية، والتعصب المذهبي، والتطرف العقدي، وباقي الظواهر التي تخلق الهوة وتعمقها بين الترقى في الماديات، والتردي في السلوك والأخلاقيات.

إن أخطر الأخطار، يرجع، كما يتجلى في محيطنا اليومي، سيما فيما تبرزه وسائل الإعلام السمعية - البصرية، إلى عدم الاكتراث بقواعد التعايش والتعاقد، والعمل من أجل سلامة الأبدان، ونجاة جنس الإنسان، كما قال الحكماء القدماء. والمسلمون بالخصوص، يعيشون فترة يعانون فيها ما يعانون، بسبب تعثر تجاربهم التنصيرية، وتفاقم قضاياهم الاجتماعية، وبالنصوص تلك المتعلقة بالبطالة والمرتبة عنها. وتزيد مشاكلهم المرضوعية حدة بسوء الرؤية للغير التي يذهبون ضحيتها. فالتصور السائد عن الإسلام والمسلمين، وعن أمم الجنوب عامة، سيما البلاد الإفريقية، لا يساعد على التعاون والتفاهم. ونأمل في هذا الصدد أن يكون لمجهودنا المستنير بتعاليم الإسلام السمحة والقيم الإنسانية الكونية، أثر على دعم وسائل التناصح والتأزر، وتنشيط مؤسسات اللقاء الإنساني، والحوار الفكري والاجتماعي، الذي طالبت بتعميقه والانضمام إلى ما تقرر في شأنه، لقاءات عديدة، وندوات تكررت في العقدين الأخيرين، ومن المفيد أن تواصل مجهوداتها الواعدة، حتى تؤتي أكلها، ويستفيد الجميع من نتائجها.

أصحاب السماحة والسعادة

أيها السادة والسيدات،

إن الإسلام نشأ وترعرع في بيئة عرفت ديانات وملا ونحلا وفلسفات، منها الديانتان السابوتان اليهودية والمسيحية. ولذلك فقد اكتسب منذ فجره تجربة واسعة في التعايش والتواصل بين الأديان المختلفة. قال بعض المستشرقين: إن الإسلام بطبيعته ومقتضيات تاريخه دين سمح متسامح بالضرورة... ونحن نرى أصل القيم التي نؤمن بها، في الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأعددهم لفهمها، وهيامهم للإلتقاء لها، واحترامها كاملة صافية بعيدة عما يلتبس بها من الهوى والضلال. وتؤكد تقاليد التسامح هذا الإقبال على الحوار، كما تشهد بذلك المظاهرات العلمية العديدة التي جرت عبر التاريخ بين علماء النصارى والمسلمين... وقد أدرك الإسلام في مهده، إيجابية

الاختلاف، ومقصد الحكمة الإلهية منه، كما تتجلى في قوله تعالى: «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم» (22/30) وقال جل وعلا: «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا». ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات» (48/5).

ومن بين هذه الخيرات قواعد الحوار وأخلاق التعاون وواجبات التضامن بين جميع الناس، مهما اختلفوا في فهم رسالتهم، أو منطلق لغاتهم، أو سميات ثقافتهم. ونحن نعمل دائما على أن يكون سلوكنا تجسيدا مستمرا لاحترام الحرية والرأي والحق في سياستنا داخل بلادنا، وعلى الساحة العربية والإسلامية، وفي جميع مراقبتنا الدولية. قال تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (49/13).

وقد اعتدنا أن نُذكر، في كل مناسبة، بضرورة التعارف الذي ندعو جميعا إليه، وأن لم نقف طويلا على راقعه التاريخي، إقليميا وعالميا، بالرغم من لهذا التاريخ من معنى ومغزى، مفضلين التأكيد على ما يتضمنه من قيم، وما يترجمه من واقعية وحكمة، لارتباطه بواجبات الوقت، ومقتضيات التربية العامة ومتطلبات الحضارة. وفي هذا المضمار، فمن المفيد أن نتأمل الربط بين تقوى الله وكرامة الإنسان واحترام الغير في القرآن؛ وجميعها قيمٌ ركز عليها الإسلام، والديانات السماوية بصفة عامة، هداية للناس في معاملاتهم بينهم جميعا، وبين أهل الكتاب بالدرجة الأولى، لأنهم تعايشوا وأخذوا من بعضهم بعضا.

والإسلام في حرصه لاتباع هذه الطريق، ونهج هذا المنهج، إنما يستجيب للأوامر الربانية، ويأخذ بالقيم التي نزلت من أجلها الرسالات، ويحث الله في شأنها الرسل... وأنتم تعلمون، أرشدكم الله، أن أهم ما يدعونا الله تعالى إليه هو الخلق الكريم، وفضائل الطبع، ومحاسن العهد، بوصل من قطع، وإعطاء من حرم، والعفو عن ظلم، وغير ذلك من أصول الفضيلة وينابيع الشيم والمناقب. لذلك ذكرنا أعضاء المجلس التنفيذي لليونسكو، حينما زاروا مملكتنا في الصيف الماضي، بدور التربية التي ليست مجرد تلقين، وبمهامها التي هي من أهم ما يساهم به المجتمع الدولي في حل مشاكل العصر، والحد من العنف والبطالة والشنآن والحروب، بالاجتهاد والصبر، واحترام حقوق

الغير، والشفقة بالله، والعمل لوجهه، فالمقصد الأسمى من التربية : الأخلاق. وهو رياضة للروح، وقرن على المسؤولية. واخلق يبدأ بإحسان الجوار، ومعاشرة الناس، ليستقيم اجتماعهم، وتتنظم أحوالهم، فيحسن كل إلى أخيه، كما أحسن الله إليه.

أصحاب السعادة والسعادة

أيها السادة والسيدات،

إن كنا نحثني في هذا اليوم المبارك، بذكرى عزيزة على قلوبنا، ذكرى أول زيارة قام بها رئيس الكنيسة الكاثوليكية لبلد مسلم، فإننا نرى أن من الضروري، بل ومن الحيوي، تنشيط علاقات التفاهم والتعاون بين الأديان السماوية، لا للتفاهم فيما بيننا فحسب، ولكن لدعم الحوار على جميع المستويات، سيما تلك التي من شأنها أن تساهم في إقرار دعائم السلام، وتقدير قيم التضامن، وضمان مستقبل الشباب، الذي هو قوام عالم الغد. فلنبداً بأنفسنا، ولنتعاون على تنمية المناطق والبلدان التي تسكن فيها، ويتعاش بها المؤمنون من ورثة سيدنا إبراهيم الخليل، لتكون مثالا يستشهد به، ونفوذنا يُستطلع إليه.

إن الرسائل السماوية، التي تلهم أعمالنا، كانت ثورة على الجاهلية والقبلية والعرقية، ودعوة للتقوى والإيمان، وسبيلا للعمل والأمل، هذا الأمل الذي يبينه قرير الرسالة من جيل إلى جيل، حتى لا تنفصم العروة الوثقى التي تربط بين الأجيال. فلنعمل جميعا على محاربة البؤس، واستتصال البأس، والدفاع عن الحقوق، وتركيز التشاور والتعاون في الوسائل القيمة بمد الجسور بين بني البشر، وخاصة بين الشمال والجنوب، وبين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، لنحوّل حواجز البحار والرمال والتقاليد، إلى ميادين جديدة للتعاون، وتحديات إيجابية يختبر بها الله إرادة الخير عند الإنسان ليقوّيها، حتى يكون التنافس تنافسا في بلوغ الهدف المنشود، والاجتهاد اجتهادا نحو المرام المحمود. وذلك ما سَيَتِمُّ إذا أفهمنا شبابنا ما يوحدنا، وجعلنا مدركا لعمق ما عليه تلاقينا، وأقنعنا بأن ردودنا على أسئلة اليوم ردود متقاربة متشابهة، لأن «الحق قديم»، والأجوبة الحققة على الأسئلة الجديدة قد تتنوع صيغها، ولكن منبعها واحد، لأن ملهمها واحد، وهو ربنا، عليه توكلنا، وإليه أنبنا، وإليه المصير، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.